المِرآتيون

٢٥/ ٥/ ١٤٣٦هـ

قبل نحو عشرين سنة؛ طلبَ مني مرةً أحدُ الأصدقاء -وهو طالب علم- أن أذكر له ما أراه من ملاحظاتٍ وعيوبٍ لا يَسلَم منها البشر! فأكبرتُ هذا منه، وأفادني بموقفه هذا درسًا عظيمًا في تلمّس الكمالات، والاعتراف بالنقص.

المهم أني قلتُ له: لا يحضرني شيء الآن، لكن دعني أنقلُ لك ملاحظةً سمعتُها من أحدِ الإخوة، فلما ذكرتُها له؛ بيّن لي عذرَه فيما انتقده عليه ذلك الشخص، ودعا له، وشكره، ثم سألني عن مستوى هذا الأخ الناصح العلمي، وليس عن اسمه؟ فاستغربتُ سؤالَه هذا! فقال: أريد أن أُهدي له هديةً تليق به، ولأعبِّر عن شكري له على ما قال، بغضّ النظر عن دقّة فهمه لما جرى، فأخبرتُه أنه طالب علم يدرس في كليةٍ شرعيةٍ، فذهبنا جميعًا إلى إحدى المكتبات، فاشترى كتابًا تساوي قيمته الآن ٤٠٠ ريال في التخصص نفسه الذي يدرس فيه ذلك الأخ الذي نقلتُ نصيحتَه، فازداد عجَبي من هذا الصديق أكثرَ وأكثر!

ثم وجدتُ -بعد ذلك- مِن فِعال السـلف ما انطبق على حاله، فهذا عبدالرحمن بن يزيـد بن جابر يقول: قال لي بلال بن سـعد: «بلغني أن المؤمنَ مرآة أخيه؛ فهل تستريب من أمري شيئًا؟!»[1].

وأبوهريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقـول: «المؤمنُ مـرآة أخيـه، إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»[2]، ويُروى هذا الحديـثُ مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظ: «**المؤمن مـرآة المؤمن**»[3]، فالإنسـان إذا وقف أمامَ المـرآة رأى صورتَه الحقيقيةَ، بما فيها من حَسَـن وسَـيِّئ؛ لأن المرآة تعكس صورةَ الشخص بحُسـنها وقُبحها، والإنسانُ ربما لا يسـتطيع أن يعرف نفسَه، ولا يَرى نفسَه جيدًا، إلا من خلال رؤية أخيه المسلم الذي هو مرآة له:

فـالعـينُ تُبصـرُ فيها مـا دنا ونأَى

ولا تـرى نفسَـــــهـا إلّا بمـرآةِ

فمَن منّا يملك الشـجاعةَ ليبادر إلى خاصـةِ إخوانه الذين يخالطهم بكثرة، ويراهم أو يحادِثهم كما يَرى المرآة، ليسـألهم عن عيوبه وجوانبِ النقـص فيه، ولا ينتظر أن يأتي أحدٌ لينصحـه، فإن هذا قد لا يَجرؤ عليه إلا القليلُ من الأصدقاء؛ خشـيةً من تَبِعات هـذه المبادرة بالنصيحة، إذ النُّصـح لا يتقبله، ويحتفي به إلا النـوادرُ من الأصحاب؛ لأن النصيحة تعني الكشف عن العيوب!

ومن المتفق عليـه أنه لا أحدَ منّا يخلو من نقص وعيب، على حدّ قول الحريري:

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص٣١٢).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم٢٣٨).

(٣) رواه أبوداود (رقم٤٩١٨)، وحسّن الحافظُ ابن حجر سندَه في بلوغ المرام (رقم١٥٤٩).

مَنْ ذا الَّـذي ما سـاءَ قَـط

ومَـنْ لـه الحسـنَى فقَـط؟!

فمن العقل أن نفتح الباب، ونمهّد الطريقَ لخاصّة أصحابنا ليقوِّموا، ويقيّموا مـا يرونه منّا، خصوصًا مَن يكثـر اختلاطُه بالناس، ويتصدى لنفعهـم، فإن مظنّة الخطأ من هذا النوع أكثر؛ لكثرة ملابسـتهم للناس، ولتنـوع المواقف التي تقع من الآخرين تجاههم، ففيهم الجاهلُ والصغيرُ وصاحبُ الحاجة، ممن يُتوقع منهم صدور ما يستفزّ العاقل!

ومن المهم -ونحن في ميدان (المرآتية)- أن يحرص الناصحُ على لزوم أرفع درجاتِ الأدب، وحُسْنِ اللفظ عند التعبير عن المراد، مراعيًا الوقت والحالَ الأنسـبَ لبذل النصح، وعلى المنصوح أن يكون واسـعَ الصدرِ لتَلَقِّـي الخطأ، والتنبيهِ على الزلّة، وأن ينظـرَ إلى هذا التنبيهِ والنصحِ على أنه خطوة إلى الأمام في سـبيل التخفّف من العيوب، بل ينبغي أن يُشعِر الناصحَ بالامتنان على نصحه وتنبيهه؛ لأن هذا سيشـجعه في المسـتقبل على الاسـتمرار؛ حيث رأى أنك تجاوبتَ معه، ولـو رأى عكس ذلك فسيُحجم عن النصح.

ومِـن توفيق الله للمنصـوح أن ينظر إلى كلامِ الناصـح بما نظر إليه الخليفـةُ الصالح عمر بـن عبدالعزيز على أنها هديّـة، حين قال: «رحم الله من أَهدى إليّ عيوبي»، وأنه يريد له الكمال الممكن، وسـيجد للنصح لذةً أخرى، وسـيتلقاها بنفسٍ رضيّةٍ، وسيُدرك أن الأخ الحقيقيَّ هو مَن صدَقَه لا مَن صدّقه، وأن الأخ للأخ كاليد لليد، لا غنى لها عن الأخرى، لا حرمنا الله مرايا الصدقِ من إخواننا.